نيتشة ، فرويد ، ماركس

عندما عرض عليّ مشروع هاته « المائدة المستديرة » ، بدا لي أنه مشروع بالغ الاهمية من غير أن يخلو من إرباك واضح . لذا أقترح عليكم مخرجاً أعرض عليكم فيه بعض الأفكار التي تتعلق بتقنيات التأويل عند ماركس ، نيتشة ، وفرويد .

والحقيقة أن هاته الافكار تخفي من ورائها حلمًا : وهو أن نتمكن ذات يوم من وضع نوع من المجامع العامة ، ومن الموسوعات ، التي تضم جميع تقنيات التأويل التي أمكننا معرفتها ، ابتداء من النحاة الاغريق الى أيامنا هذه . واني أظن أن هاته المدوّنة الضخمة التي تضم جميع تقنيات التأويل لم تكتب منها ، حتى الآن ، إلا فصول قليلة .

يظهر لي أن بإمكاننا أن نقرر ما يلي كمقدمة عامة لفكرة إنشاء تاريخ لتقنيات التأويل : إن اللغة ، لغة الثقافات الهندو ـ أوروبية على الاقل ، قد ولّدت دوماً نوعين من الاعتقادات :

آ) الاعتقاد بأن اللغة لا تقول بالضبط ما تعنيه . فالمعنى الذي ندركه ، والذي يتجلى مباشرة ، قد لا يكون في الحقيقة إلامعنى أضعف يخفي معنى آخر ويغلّفه ؛ لكنه ينقله بالرغم من كل شيء ، بحيث يكون هذا المعنى هو المعنى الاقوى ، والمعنى المضمر في الوقت ذاته ، وهذا ما كان الاغريق يطلقون عليه الـ allegoria والـ Hyponoia .

ب) ثم إن اللغة تولد هذا الاعتقاد الثاني : وهو أنها تتجاوز صورتها اللفظية الصرف . وأن هناك أشياء أخرى في العالم تتكلم دون أن تكون لغة . فقد تكون الطبيعة ، والبحر ، وحفيف الاشجار ، والحيوانات ، وألاوجه ، والاقنعة ، والسكاكين ، قد تكون هاته الاشياء كلها تتكلم . ولعل هناك لغة تتخذ صورة غير لفظية . يتعلق الامر إذا شئتم بالـ Semainon الذي كان يتحدث عنه الاغريق .

هذان الإعتقادان اللّذان نلحظ ظهورهما عند الاغريق ، لم يختفيا بعد . وما زالا يجدان الحياة بيننا . إذ أننا ، وبالضبط ابتداء من القرن التاسع عشر ، عدنا إلى الاعتقاد بأن الحركات الخرساء ، والأمراض ، وكل الأشياء ، التي تضج من حولنا ، يمكنها أن تتكلم ، ونحن نصغي أكثر من أي وقت مضى إلى هاته اللغة الممكنة ، محاولين أن نعثر من وراء الكلمات على حديث أكثر أهمية .

هذا نص شارك به فوكو في ندوة حول مائدة مستديرة محورها نيتشه . وفي النص نقاش قاده المشاركون

أعتقد أن كل ثقافة ، وأقصد كل شكل ثقافي من الاشكال التي عرفتها الحضارة الغربية ، قد كانت له منظومة تأويله ، وتقنياته ، ومناهجه ، وطرقه الخاصة للكشف عن اللغة التي تريد أن تعني غير ما تقـولـه ، ولتخمين وجود لغة خارج اللغة .ويظهر إذن أن هناك مشروعاً ينبغي الخوض فيه لاقامة جدول لجميع منظومات التأويل .

لكي نفهم منظومة التأويل التي أقامها القرن التاسع عشر ، ولكي ندرك ، بالتالي ، أيَّ منظومة تأويل ما زلنا ننتمي أليها نحن كذلك ، يظهر لي أن علينا أن نرجع إلى عهد مضى ، وإلى نوع من التقنيـة كذلـك الـذي عرفه القرن السادس عشر مثلاً . فما كان يحدد مجال التأويل في هذاالعهد ، وما كان يشكل الحقل العام والوحدة الدنيا التي ينصب عليها التأويل هو التشابه . فحيثـما كانت الاشياء تتشابه ، وحيثما كان هناك تشابه ، كان هناك معنى وكان بالامكان الحفر وراءه . ونحن نعلم جيداً الدور الاساسي الذي لعبه التشابه ، وجميع المفاهيم التي تحوم حوله ، سواء داخـل الكـوسمـولوجيا ، أو علم النبات ، وعلم الحيوان ، أو في الفلسفة خلال القرن السـادس عشر . الحق أن سلسلة التشـابهات تبدو لنا نحن ، أبناء القرن العشرين ، مختلطة غامضة . غير أن منظومة التشابه هاته قد كانت محكمة التنسيق ، خلال القرن السادس عشر ، وكانت تضم خمسة مفاهيم على الاقل ، محددة أدق تحديد :

- مفهوم التلاؤم convenentia ويعني التوافق (مثلا توافق النفس مع الجسد ، وتوافق السلسلة الحيوانية مع السلسلة النباتية) .
- مفهوم التعاطف sympatheia ويعني وحدة الاعراض واتحادها في جواهر مختلفة .
- مفهوم Emulatio الذي يعني التوازي الغريب بين صفات جواهر أو كائنات متمايزة ، كما لو كانت هاته الصفات يعكس بعضها بعضاً في هذا الجوهر أو ذاك . (وهكذا يفسر « بورتا » كون الوجه البشري يشكل بجانب الاجزاء السبعة التي يعيّنها توازياً مع السماء وكواكبها السبعة) .
- مفهوم signatura الاثر الذي يشكل ، من بين الخصائص الجلية للفرد، صورة لخاصية غير مرئية وخفية .
- ثم بالطبع مفهوم التجانس الذي يعني وحدة النسب بين جوهرين متمايزين فأكثر .

كانت نظرية الدليل signe ، وتقنيات التأويل في هذا العهد ، إذاً ، تقوم على تعريف يحدد بوضـوح جميـع الانـواع الممكنة للتشابه . كما كانت تقيم أسس نوعَين متمايزين من المعارف : الـ cognitio التي كانت تعني الانتقال الجانبي من تشابه إلى آخر . والـ Divinatio التي كانت تعني المعرفة المعمقة التي تنتقل من تشابه سطحي إلى تشابه أكثر عمقاً . وكانت جميع هاته التشابهات تجسد إجماع العالم الذي يؤسسها ، وتعبر عن اتفاقه ووحدته . وكانت تقابل الـ Simulacrum ، أي التشابه المحرف الذي يقوم على البون الذي يفصل الاله عن الشيطان .

□

إذا كان تطور الفكـر الغـربي ، خلال القـرنـين السـابع والثامن عشر ، قد ترك تقنيات التأويل ، التي عرفها القرن السادس عشر ، معلقة ، وإذا كان النقد الذي وجهه « بيكون » و

« ديكارت » للتشابه قد لعب دوراً كبيراً في وضع تلك التقنيات بين قوسين ، فإن القرن التاسع عشر ، وعلى الأخص ماركس ونيتشه وفرويد ، قد طرحوا أمامنا إمكانية أخرى للتأويل . إنهم أسسوا إمكانية قيام تأويل جديد .

فالكتاب الاول من « رأس المال » ، ونصوص مثل « مولد المأساة » ، و « نشأة الاخلاق » و « تأويل الأحلام » ، إن كل هاته النصوص تطرح أمامنا تقنيات للتأويل . وما أحدثته هاته المؤلفات من صدمة ، وما خلفته من جرح في الفكر الغربي ، ربما يعود إلى كونها قد أقامت أمام أنظارنا شيئاً كان ماركس ذاته قد سماه « هيروغليفيات » ، الامر الذي وضعنا في موقف غير مريح ، لكون هاته التقنيات تخصنا نحن ، ولاننا نحن المؤولين ، قد أخذنا نؤول ذواتنا عن طريق هاته التقنيات . وعلينا أن نفحص هؤلاء المؤولين أنفسهم ، سواء فرويد ، أو نيتشه ، أو ماركس ، عن طريق تقنياتهم ذاتها ، بحيث إننا نجد أنفسنا غارقين ضمن سلسلة من الانعكاسات المرآتية .

يقول فرويد في إحدى مؤلفاته بإن الثقافة الغربية قد عرفت ثلاثة جروح نرجسية كبيرة : الجرح الذي فرضه « كوبيرنيك » ، وذاك الذي تركه « داروين » عندما كشف بأن الانسان ينحدر عن القردة ، وأخيراً الجرح الذي خلفه « فرويد » ذاته ، عندما بين بدوره أن الشعور يقوم على اللاشعور. وأنا أتساءل بدوري عما إذا لم يكن باستطاعتنا أن نقول إن فرويد ، ونيتشه ، وماركس ، عندما أقحمونا في مهمة تأويل ينعكس دوما على ذاته ، شكّلوا من حولنا ، وبالنسبة لنا نحن ، تلك المرايا التي تعكس عنا صوراً لا تضمّد جروحها ، فتشكّل نرجسيتنا اليوم . وعلى كل حال ، وهاته هي النقطة التي سأقترح عليكم حولها بعض الافكار ، يظهر لي أن ماركس ونيتشه وفرويد لم يضيفوا دلائل جديدة للعالم الغربي . إنهم لم يضفوا معنى جديداً على أشياء لم يكن لها معنى . وإنما غيروا في الحقيقة طبيعة الدليل ، وبدلوا الكيفية التي كان بإمكان الدليل أن يؤوّلَ بها .

إن أول سؤال أود أن أطرحه هو الآتي : ألم يحدث ماركس وفرويد ونيتشه تغيرات عميقة على المكان الذي تتوزع فيه الدلائل ، والعلامات ، فتحدد بموقعها فيه ؟

ففي العهد الذي انطلقنا منه ، واتخذناه مرجعا لنا ، .. خلال القرن السادس عشر ، كانت الدلائل والعلامات تتوزع بكيفية متجانسة في مكان كان هو ذاته مكاناً متجانساً ، كما أن هذا التوزيع كان يتم بحسب جميع اتجاهات ذلك المكان . فدلائل الارض كانت تحيل إلى السماء ، ولكنها كانت ترد في الوقت ذاته إلى عالم ما تحت الارض . إنها كانت تحيل من الانسان إلى الحيوان ، ومن الحيوان إلى النبات والعكس . وابتداء من القرن التاسع عشر ، أي مع فرويد ، وماركس ، ونيتشه ، أصبحت الدلائل والعلامات تتدرج في مكان متفاوت الاجزاء ، وحسبَ بُعْدٍ يمكننا أن نطلق عليه بُعْدَ الاعماق ، شريطة ألا نفهم من هذا البعدَ الباطني ، وإنما بعد العمق الخارجي .

ينصرف ذهني ، بصفة خاصة ، الى الجدال الطويل الذي ما فتىء نيتشه يقيمه مع الأعماق التي بيّن أنها من اختراع الفلاسفة . فهؤلاء يدعون أن هاته الأعماق هي بحث خالص باطني عن الحقيقة ، يبيّن نيتشه كيف تقضي هذه الاعماق الى الخنوع والنفاق ولبس الاقنعة. بحيث يكون على

المؤول ، إذا ما استعرض علامات هاته الأعماق ليفضحها ، أن ينزل نحو أسفل الخط العمودي ليبيّن أن هذا العمق الباطني هو خلاف لما يعنيه ويدّعيه . وعلى المؤول إذاً أن ينزل نحو القعر ، « أن يكون منقباً جيداً في الدواخل سابراً للأعماق » . كما يقول نيتشه ذاته . (الفجر ، الفقرة ٤٤٦) .

غير أننا لا نستطيع أن نقطع هذا الخط النازل عندما نقوم بعملية التأويل ، إلا أذا كانت غايتنا استعادة الخارج المشع الذي أقْبرَ وغُلِّفَ . ذلك أنه إذا كان على المؤوِّل أن ينزل هو ذاته نحو الاعماق مُنَقّباً ، فإن حركةَ التأويل تكون على العكس من ذلك ، حركةَ سطح يتزايد علوه بحيث يدع العمق ينكشف من فوقه . وحينئذ تكون الأعماق قد استُعيدت كما له كان سراً مطلق السطحية ، بحيث يكون طيران النسر وصعود الجبال ، وجميع تلك الاتجاهات العمودية ، التي يزخر بها كتاب « زرادشت » ، عبارة عن قلب للأعماق ، وكشف عما كانت تخفيه ، وكونها لم تكن إلا السطح وقد انثنى وطرأ عليه ما طرأ . وكلما اتخذ العالَم تحت أنظارنا شكلاً أكثر عمقاً فإننا سنتبين أن جميع الاشياء التي كانت تشكل أعماق الانسان لم تكن إلا لعب أطفال .

أتساءل عما إذا لم يكن في استطاعتنا أن نقارن هذا الإلحاح على المكان ، وهذا القَلْب الذي أحدثه نيتشه للاعماق ، مع ما قام به ماركس إزاء ما هو مسطّح ، برغم ما يبدو من اختلاف بين الامرين . وبالفعل ، فإن مفهوم السطح شديد الاهمية عند ماركس . ففي بداية رأس المال يُبَيّن ماركس كيف ينبغي أن ينغمس في الضباب كي يبين أن ليس هناك أشباح ولا ألغاز عميقة ، لان كل ما يوجد من عمق في مفهوم البرجوازية عن النقود ورأس المال ، والقيمة ، ليس في الحقيقة إلا سطحيات .

وعلينا بالطبع أن نذكّر بمكان التأويل الذي أقامهُ فرويد ، لا فيما يخص التدرج المكاني للشعور واللاشعور فحسب ، بل ما يتعلق بالقواعد التي صاغها لغرض تحليلي ، ولكي يستعملها المحلِّل ليفحص كل ما يقال خلال سلسلة الكلام . وعلينا أن نتذكر المكان المادي الذي أولاه فرويد كبير عناية ، والذي يجعل المريض يمتد تحت أنظار المحلل الذي ينظر إليه من فوق .

□

أما الفكرة الثانية التي أود أن أعرضها عليكم ، والتي لا تخلو من ارتباط مع هاته النقطة الاولى ، فهي كون التأويل قد أصبح ، انطلاقاً من هؤلاء المفكرين الثلاثة الذين نتحدث عنهم ، مهمة لا نهاية لها .

والحق أنه كان كذلك حتى خلال القرن السادس عشر . ولكن العلامات كانت تحيل بعضها إلى البعض ، لسبب بسيط وهو أن التشابه لا يمكن أن يكون إلا محدوداً . وابتداء من القرن التاسع عشر أصبحت الدلائل تترابط فيما بينها ، لتشكّل سلسلة لا نهاية لها ، ولا يؤتى على نهايتها لا لكونها تقوم على تشابه عديم الحدود ، بل لان هناك انفتاحاً وفوّهة لا يمكن أن تنغلق .

إن عدم اكتمال التأويل وقابليته الدائمة للفحص ، وكونه يظل دوماً تأويلاً معلّقاً ، كل هذا

نجده بصفة متماثلة سواء عند ماركس أو نيتشه أو فرويد ، وذلك في صورة رفض للبداية . فماركس كان يرفض الحديث عن حياة « حي بن يقظان » ، ونيتشه كان يعطي أهمية شديدة للتمييز بين البداية والاصل والفصل بينهما ، أما فرويد فإنه كان يلح على الصبغة اللامكتملة للطريقة التراجعية التحليلية . ونحن نلاحظ هذه التجربة بكيفية أكثر حدة عند نيتشه وفرويد على الخصوص ، أكثر مما نلحظها عند ماركس . وأظن أنها تجربة أساسية بالنسبة للتأويل المعاصر . وهي تتلخص في كوننا ، كلّما اغرقنا في التأويل ، نقترب ، في الوقت ذاته ، من منطقة شديدة الخطورة لا يرتد عندها التأويل على أعقابه فحسب ، بل يختفي كتأويل ، محدثاً معه اختفاء المؤوِّل ذاته . فبما أن النقطة النهائية للتأويل تظل دوماً نقطة تقريبية ، فإن ذلك يعني وجود نقطة انفصال .

ونحن نعلم جيداً كيف تم الاكتشاف التدريجي لخاصية الانفتاح البنيوي للتأويل عند فرويد . لقد ظهر هذا الانفتاح في شكل مستتر في تأويل الاحلام عندما حاول فرويد أن يحلل أحلامه هو ، فأورد أسباباً تتعلق بالحياء ، بكتمان الاسرار الشخصية ، ليتوقف عن التأويل .

وفي تحليل « دورا » نلاحظ هاته الفكرة التي ترى بأنه ينبغي على التأويل أن يتوقف ، وأنه لا يمكن أن يبلغ نهايته بسبب شيء سيطلق عليه فرويد ، سنوات بعد ذلك ، لفظَ التحويل . وفيما بعد سيتأكد ، خلال دراسة التحويل ، أن التحليل لا يُسْتَنْفد لكون العلاقة التي تربط المحلِّل بالمحلَّل تظل لا نهائية الاشكال ، ولا تنفك تطرح عدة مشكلات . ونحن نعلم بوضوح أن هاته العلاقة تشكل ركناً أساسياً من أركان التحليل النفسي ، وتفتح مجالات وآفاقاً للتوسع دون تتمكن من الاكتمال .

ومن الجلي أن التأويل عند نيتشه ، أيضاً ، يظل دوماً ناقصاً غير الذي يظل دوماً معلقاً على أُهْبَةٍ لأن يفاجئنا ؟ انها نوع من فقه اللغة الذي لا يعرف الحدود ، والذي يجد اكتماله دوماً عند نقطة أبعد . انها فقه لغة لا يقر له قرار . ولماذا ؟ ذلك أن « الموت عن طريق المعرفة المطلقة يمكن أن يكون أساساً من الاسس التي يقوم عليها الوجود « كما يقول هو ذاته في كتابه « ما وراء الخير والشر . الفقرة ٣٩ » . وبالرغم من ذلك فإن نيتشه قد بين في مؤلفه « هذا هو الانسان » كمّ كان اقترابه من تلك المعرفة المطلقة ، التي تشكل أساساً من أسس الوجود . وقد فعل الشيء نفسه خلال خريف ١٨٨٨ في « تورين » .

وإذا ما نحن نقّبنا في مراسلات فرويد عن الاهتمامات التي كانت تشغل باله على الدوام ، منذ أن اكتشف التحليل النفسي ، يكون في إمكاننا أن نتساءل عما إذا لم تكن تجربة فرويد في العمق شبيهة بتلك التي عاشها نيتشه . فالمقصود بالنقطة التي عندها التأويل ، تلك النقطة التي ينتهي إليها التأويل ليصبح مستحيلاً ، المقصود بذلك هو شيء شبيه بتجربة الحمق .

وقد قاوم نيتشه هاته التجربة أشد المقاومة . كما أنها أثارت إعجابه . وإنها التجربة ذاتها التي كافح ضدها فرويد طيلة حياته ، دون أن يخلو ذلك الكفاح من عناء ومرارة . وربما كانت تجربة الحمق هاته هي ثمن حركة التأويل التي تقترب ، إلى ما لا نهاية له ، من مركزها ، والتي تنهار محترقة .

أعتقد أ ن خاصية عدم الاكتمال هاته ، وهي خاصية أساسية في التأويل ، ترتبط بمبدأين آخرين أساسيين هما أيضاً ، ويشكلان إلى جانب المبدأين السابقين مصادرات التأويل الحديث . أول هذين المبدأين هو أنه إذا لم يكن في استطاعة التأويل أن يكتمل فذلك لسبب بسيط وهو عدم وجود ما يؤوَّل . فليس هناك عنصر أول ينبغي تأويله وينطلق منه التأويل . لان العناصر كلها تكون في الحقيقة تأويلاً ، وكل دليل لا يشكل في ذاته الشيء الذي يعرض نفسه للتأويل ، وإنما هو تأويل لعلامات أخرى .

وإذا شئتم فلنقل إنه لا يكون هناك موضوع ما من موضوعات التأويل إلا وقد أُوِّل من قبل ، بحيث تكون العلاقة التي تقوم في عملية التأويل علاقة عنف بقدر ما تكون علاقة توضيح وكشف . وبالفعل ، فإن التأويل لا يكشف خفايا مادة للتأويل تعطي نفسها بشكل سلبي منفعل . إن التأويل لا يمكنه إلا أن يستحوذ ، وبعنف ، على تأويل آخر سبق وجوده من قبل ، فيقلبه ، ويقلّبه ، وينزل عليه ضربات عنيفة .

ونحن واجدون هذا حتى عند ماركس الذي لا يؤوِّل تاريخ علاقات الانتاج ، وإنما يؤوِّل علاقة تقدم نفسها كتأويل ما دامت تدعي أنها طبيعية ، وكذا الامر بالنسبة لفرويد الذي لا يؤول العلامات وإنما يؤول تأويلات أخرى . وبالفعل ، فماذا يكشف فرويد وراء الاعراض ؟ إنه لا يكشف ـ كما يقال ـ « صدمات » ، بل يبين عن استيهامات مع ما تحمله من قلق . أي أنه يكشف عن نقطة تكون ، في وجودها الخاص ، تأويلاً . إن فقدان شهية الطعام ، مثلاً ، لا يحيلنا إلى الاستعباد ، مثلما يحيلنا الدّال إلى المدلول . بل إن ذلك الفقدان ، من حيث هو دليل وعرَض ينبغي تأويله يردنا إلى الاستيهامات التي تتعلق بثدي الام الرديء المريض ؛ هذا الثدي الذي هو تأويل في حد ذاته ، وجسم يتكلم . لذا لا يكون على فرويد أن يقوم بتأويل مغاير لما يقدمه له مرضاه في لغتهم من أعراض . بل إن تأويله يكون تأويلاً لتأويل ، في الحدود التي يكون فيها هذا التأويل معطى . ونحن نعلم أن فرويد قد كشف « الأنا الأعلى » عندما قالت له إحدى مريضاته ذات يوم « إنني أشعر بكلب فوقي » .

وبالكيفية نفسها فإن تأويلات نيتشه ستنصب ، هي بدورها ، على تأويلات ينصب بعضها على بعض . فليس هناك عند نيتشه مدلول أصلي ، والكلمات ذاتها ليست إلا تأويلات . وهي قبل أن تصبح علامات تكون قد قامت ، خلال تاريخها بتأويلات . وهي لا تعني شيئاً وتدل عليه الالكونهاتأويلات أصلية وما يشهد على ما نقوله اشتقاق كلمة **Agathos** (أنظر نشأة الاخلاق ، الجزء الأول ، الفقرات ٤ و ٥) . وهذا ما يعنيه نيتشه أيضاً عندما يقول بان الكلمات قد اخترعت عن طريق الفئات العليا . فهي لا تشير إلى مدلول ، وإنما تستدعي عملية تأويل . نتيجة لذلك ، فلسنا مدعوين إلى خوض عملية التأويل لان هناك علامات أولية غامضة ، وإنما لأن هناك تأويلات ، ولان كل ما ينطق ويتكلم يخفي من ورائه نسيجاً من التأويلات العنيفة . لهذا السبب هناك عاملات ودلائل تحثنا على القيام بتأويل لتأويلها ، وتدفعنا لان نثور ضدها من حيث هي علامات . بهذا المعنى يمكننا أن نقول إن الـ **Allegoria** والـ **Hyponoid** توجد في أعماق اللغة وأساسها وقبلها ، وليست هي ما انفلت فيها بعد خلف الكلمات لكي يزحزحها عن مكانها ، ويهزها ، بل ما ولد هاته الكلمات وجعلها تشع بنور لا يقر على حال . لذا كان المؤول عند نيتشه

هو الصِّدق. إنه «الصادق» الحق، لا لكونه يكشف عن صدق وحقيقةٍ مختبئة ويفصح عنهما، بل لأنه ينطق بالتأويل الذي يكون من مهمة حقيقة ما أن تغلّفه. وربما كانت هاته الاسبقية التي يتقدم عن طريقها التأويل على الدلائل والعلامات هي أهم ما يحتوي عليه التأويل المعاصر.

فالقول بإن التأويل يسبق الدليل، ويتقدمه، يفترض أن الدليل ليس كائناً بسيطاً (طيبا) مثلما كانت الحال خلال القرن السادس عشر، حيث كانت غزارة الدلائل والعلامات، ووجود تشابه بين الاشياء، دليلين على طيبة الرب، ولم يكونا ليفصلا الدليل عن فحواه إلا عن طريق حجاب شفاف. وعلى العكس من ذلك يبدو لي أنه انطلاقاً من فرويد، وماركس، ونيتشه، سيصبح الدليل مؤذياً خبيثاً، وسيتخلى عن طيبته، أعني أنه أصبح يُضْمِر، بكيفية غامضة، نوعاً من سوء النية. وهذا بمقدار ما أن الدليل تأويل لا يعطي نفسه، ولا يقدمها على أنها كذلك. فالعلامات هي تأويلات تحاول أن تبرّرَ ذاتها، لا العكس.

على هذا النحو تعمل النقود كما نجد تحديدها في كتاب « نقد الاقتصاد السياسي »، وعلى الاخص في الكتاب الاول من « رأس لمال ». وعلى هذا النحو ايضاً تعمل الاعراض عند فرويد. أما عند نيتشه فإن الكلمات، والعدالة، والتصنيفات الثنائية للخير والشر، وبالتالي فإن العلاقات كلها هي عبارة عن أقنعة. إن الدليل إذ يكتسي هذه الوظيفة الجديدة لإخفاء التأويل، وتغطيته، يفقد وجوده البسيط، وكونه مجرَّدَ دالٍّ، هذا الوجود الذي كان ما يزال يحتفظ به خلال عصر النهضة، فكما لو أن سُمْك العلاقة قد إتسع وانفتح على المفاهيم السلبية التي لم تكن تعرف إلا اللحظة الشفافة للحجاب. أما الآن فستُنظّم داخل العلاقة شبكةٌ من المفاهيم السلبية، والتناقضات، والتعارضات، أعني مجموع القوى السلبية التي حللها « دولوز » تحليلاً جيداً في كتابه حول نيتشه.

« قلب الجدل ليقف على قدميه »: إذا كان لهاته العبارة من معنى أفليس هو بالضبط استعادة السلب، وفعاليته، ليشغل ذلك السمك، ويحتل ذلك المكان المفتوح، اللانهائي، الذي لا يحتوي على أي شيء حقيقي، ولا يعرف أي حل للتناقض؟ ذلك أن الجدل كان قد قضى على كل هذا عندما اتخذ معنى إيجابا.

لنعرض، في النهاية، السمة الاخيرة للتأويل: فالتأويل يجد نفسه مرغمًا على أن يؤول ذاته إلى ما لا نهاية، وأن يتناول ذاته من جديد على الدوام. تتولد عن ذلك نتيجتان أساسيتان: أولهما أن التأويل يكون دوماً للمجهول الذي قام بالتأويل. فنحن لا نؤوّل المعنى الذي يوجد في المدلول، وإنما نؤول هذا الذي قام بالتأويل. فليس مبدأ التأويل إلا المؤول، ولعل ذلك هو المعنى الذي يعطيه نيتشه لكلمة « سيكولوجيا ». أما النتيجة الثانية فهي أن التأويل يكون عليه دائمًا أن يؤول ذاته، وهو لا يملك بدأً من أن يؤول ذاته على الدوام. فمقابل زمن العلامات الذي هو زمن الأجل المحدود، ومقابل زمن الجدل الذي هو بالرغم من كل شيء زمن خطي، لدينا زمن التأويل الذي هو زمن دائري. فهذا الزمن مرغم على أن يمر من نفس الموقع الذي مر به من قبل. الامر الذي ينتج عنه أن الخطر الوحيد الذي يتهدد التأويل هو أن نؤمن بوجود علامات تتمتع بوجود أصلي، أولي، حقيقي، كما لو كانت آثاراً منسجمة، بارزة، واضحة، مُتّسقة.

وعلى العكس من ذلك، فإن ما يضمن حياة التأويل هو ألا نؤمن إلا بوجود تأويلات.

ويبدو أن علينا أن ندرك جيداً هذا الامر الذي يتناساه معظم المفكرين المعاصرين لنا : وهو أن التأويل والسيميلوجيا عدوان لدُودَان ، فإذا كان تأويلٌ ما يرد نفسه إلى السيميلوجيا ، فإنه سيكون مضطراً لأن يؤمن بوجود العلامات والدلائل وجوداً مطلقاً ، وحينئذ سيتخلى عن العنف ، وعدم الاكتمال ، ولا نهائية التأويل ، كي يدع المجال فارغاً لرعب الإشارات ، ولكي يتهم اللغة . وها هنا نجد الماركسية كما آلت اليه بعد ماركس . وعلى العكس من ذلك ، فإذا ما انطوى التأويل على ذاته ، فإنه سقتحم مجال اللغات التي لا تنفك يفضي بعضها إلى بعض ، وسيلج ذلك الميدان الذي يفصل الحمق عن اللغة الخالصة. وهاهنا نجد نيتشه .

□

ميشال فوكو

مناقشة

بويم : لقد بينتم ، على أحسن وجه ، أن التأويل عند نيتشه لا يتوقف أبداً ، وأنه يشكل سدى الواقع ذاته . وفضلاً عن ذلك ، فإن تأويل العالم ، وتغييره ، أمران لا يختلفان عند نيتشه . ولكن هل يمكن أن نذهب المذهب نفسه بصدد ماركس ؟ فنحن نعلم أنه يقابل ، في نص مشهور ، بين تغيير العالم وتأويله .

فوكو : كنت اتوقع أن يُعترض علي بهذه العبارة لماركس . وعلى كل حال فإذا فحصتم ما يقوله ماركس في الاقتصاد السياسي ، ستلاحظون أنه يعامله دوما ككيفية في التأويل .

إن النص الذي تشيرون إليه حول التأويل يتعلق بالاقتصاد السياسي كما يفهمه ماركس ، فلا يمكن أن يشكل تأويلاً ، لكنه تأويل غير معيب ، ولا مدان ، لأنه يدخل في حسابه تغيير العالم ويتبناه بمعنى من المعاني !

بويم : هناك سؤال آخر : أليست الفكرة الاساسية عند كل من ماركس ونيتشه وفرويد هو كون الوعي يغالط ذاته ويوهمها ؟ أليست هاته هي الفكرة الجديدة التي لم تظهر قبل القرن التاسع عشر ، والتي نجد أصولها عند هيغل ؟

فوكو : سيكون خذلاناً من جانبي أن أنبهكم إلى أن المسألة التي وددت طرحها ليست هي هذه ، لقد حاولت أن أقف عند التأويل في حد ذاته ، فلماذا أعيد النظر في التأويل ؟ هل كان ذلك تحت تأثير هيغل ؟

أمر مؤكد هو أن الاهمية التي تعطى للدليل ، أو على الاقل ان التحويل الذي عرفته أهمية الدليل تم عند نهاية القرن الثامن عشر ، أو بداية القرن الماضي ، وذلك لاسباب متعددة ، من بينها اكتشاف فقه اللغة بمعناه التقليدي ، وتنظيم سلسلة اللغات الهند ـ أوروبية ، وفقدان مناهج التصنيف لاهميتها وصلاحيتها ، كل هذا ربما يكون قد ساهم في إعادة تنظيم العالم الثقافي

الغربي بدلائله وعلاماته ، وأن أموراً مثل فلسفة الطبيعة ، بالمعنى الواسع للعبارة ، لا كما هي عند هيغل وحده ، بل عند جميع معاصريه من الالمان ، هي ، من دون شك ، دليل على هذا التحول الذي عرفته حياة العلامات وكيفية تنظيمها ، والذي هز الثقافة الاوروبية وقتئذ .

يبدو لي أنه من الأليق والاجدى ، بالنسبة لنوع المسائل التي نطرحها اليوم ، أن نعتبر فكرة مغالطة الوعي وتوهمه موضوعاً تولّد عن التحول الذي عرفته حياة الدلائل والعلامات ، بدل أن نرى فيه ، على العكس من ذلك ، أصلاً للاهتمام بالتأويل .

توبس : ألا يشكو التحليل الذي قدمه فوكو من بعض النقصان ؟ فهو لم يأخذ بعين الاعتبار تقنيات التفسير الديني التي لعبت دوراً حاسمًا ، ولم يتابع تطورها التاريخي . وبالرغم من كل ما قاله مؤخراً فيبدو لي أن التأويل قد بدأ في القرن التاسع عشر مع هيغل .

فوكو : لم أتحدّث عن التأويل الديني الذي يكتسي بالفعل أهمية قصوى، وإن كنت لم أفعل ذلك فلأنني في هذه النبذة التاريخية التي عرضتها لم أهتم بالدلالة ، وإنما بالدلائل والعلامات . أما فيما يتعلق بتاريخ العلامات في معناها الواسع فلا يكتسي اكتشاف اللغات الهند ـ أوروبية ، ولااختفاء النحو العام ، ولا حلول مفهوم العضوية محل المزاج أهمية أقل مما تكتسيه الفلسفة الهيغلية .

فنحن لا ينبغي أن نخلط بين تاريخ الفلسفة وبين حفريات المعرفة .

فاتيمو : إذا كنت وفقت في الفهم ، فيبدو لي أنكم ترون بأن ماركس ينبغي أن يوضع في صنف المفكرين الذين كشفوا ، مثل نيتشه ، لا نهائية التأويل . وإذا كنت أؤمن على ما قلتموه بصدد نيتشه ، فأنا أتساءل بشأن ماركس عما إذا لم تكن هناك نقطة يقف عندها التأويل . فماذا تعني النية السفلى سوى أمر ينبغي أن يعتبر كأساس !

فوكو : لم أشرح موقفي بما فيه الكفاية بصدد ماركس ، وأنا أهاب ألا يكون في مقدوري الآن أن أقوم بذلك ، ولكن لنأخذ الثامن عشر من برومير على سبيل المثال : فهنا لا يقدم ماركس تأويله على أنه تأويل نهائي ، وهو يعلم ، كما يؤكد أن بإمكاننا أن نقوم بتأويل أكثر عمقاً ، أو أكثر عمومية ، وأن لا تفسير يكتفي بمحاذاة السطح .

جان فال : أعتقد أن هناك حرباً تدور بين نيتشه وماركس ، وبين نيتشه وفرويد ، بالرغم مما يجمعهم من تشابه . إذا كان ماركس على حق ، فينبغي تأويل نيتشه كظاهرة عرفتها البرجوازية في وقته . وإذا كان فرويد على حق فيلزم اقتحام لا شعور نيتشه .

لهذا فأنا أرى الحرب دائرة بين نيتشه والمفكرين الآخرين . ألسنا نحوز من التأويلات على مقدار يفوق الكفاية ؟ لقد أصبحنا مصابين بمرض « التأويل » . ليس من شك في أنه ينبغي لنا دوماً أن نؤول، ولكن أليس هناك شيء هو موضوع التأويل ؟ وأضيف سؤالاً آخر من الذي يؤول ؟ وأخيراً إذا كنا ضحايا أوهام ومغالطات فما مصدرها ؟ هناك مُخادع ، ولكن من يكون ؟ هناك دوماً تأويلات وما أكثرها : هناك ماركس ، فرويد ، نيتشه ، وهناك أيضاً دوغوبينو . . هناك الماركسية ، والتحليل النفسي ، وهناك أيضاً تأويلات عنصرية .

فوكو : إذا نظرنا إلى التأويل كعملية لا متناهية لا تقف عند نقطة مطلقة تحاكم فيها نفسها ، فإننا سنفهم لماذا هذا التعدد في التأويلات ، ولماذا هذه الحرب بينها ، بحيث أننا سنكون عرضة

للتأويل عندما نؤوّل ، هذا ما ينبغي أن يعلمه كل مؤوّل ، وهذا السبيل من التأويلات سمة تميز الثقافة الغربية في الوقت الراهن .

فال : وهناك مع ذلك أناس لا يؤوّلون .

فوكو : حيث فهم يكرّرون ، يلوكون اللغة ذاتها .

فال : لماذا تقول ذلك ؟ فكلوديل مثلاً يمكن بطبيعة الحال أن نخضعه لتأويلات متعددة ، لتأويل ماركس أو لتأويل فرويد ، ولكن ، بالرغم من ذلك ، فالمهم أن الامر يتعلق بأعمال كلوديل في جميع الاحوال . أما أعمال نيتشه فيصعب أن نقول عنها الشيء نفسه فهو لا يستطيع أن يصمد أمام التأويلات الماركسية والفرويدية .

فوكو : لا أستطيع أن أذهب إلى القول بأنه لم يصمد . صحيح أن تقنيات التأويل عند نيتشه تنطوي على شيء مخالف تمام الاختلاف ، وهذا ما يمنعنا من إقحامه داخل « الرابطات » التي تشكلت اليوم ، والتي يمثلها الشيوعيون من جهة ، وأصحاب التحليل النفسي من جهة أخرى . لا يمتلك النيتشويون ازاء ما يؤولونه . . .

فال : مقاطعة : هل هناك نيتشويون ؟ الظاهر أن هذ أمر مشكوك فيه !

باروني : أود أن أسألكم ما إذا كنتم ترون أن الموازاة التي يمكن أن توضع بين نيتشه وماركس وفرويد يمكن أن تصور كالتالي : يسعى نيتشه ، في تأويله ، إلى تحليل العواطف النبيلة ، مبيناً ما تخفيه في حقيقتها (نلاحظ هذا في نشأة الأخلاق) ، بينما يرمي فرويد في التحليل النفسي إلى الكشف عن المحتوى الكامن ، وهنا أيضاً تذهب العواطف النبيلة ضحية التأويل .

وأخيراً ، فإن ماركس سيهاجم الوعي السعيد للبرجوازية كي يكشف عما يوجد في أغواره ، وهكذا فإن التأويلات الثلاثة تظهر وكأنها تخضع للفكرة نفسها ، وهي أن هناك علامات ينبغي ترجمتها ، والكشف عن دلالتها ، حتى وإن كانت هذه الترجمة عسيرة ، معقدة ، محتاجة إلى أن تتم في مراحل قد تصل إلى ما لا نهاية له .

بيد أن هناك نوعاً آخر من التأويل في علم النفس ، وهو تأويل مُعارض يصلنا بالقرن السادس عشر الذي تحدثتم عنه ، ذلك هو تأويل يونغ الذي كان يعيب على التأويل الفردي سمّه السلبي الهدّام . يضع يونغ الرمز مقابل العلامة والدليل ، من حيث أن العلامة هي ما ينبغي ترجمته الى محتواه الكامن ، في حين أن الرمز لا يحتاج الى تلك الترجمة ، وهو يتكلم وحده ، وبالرغم من أنني سبق وقربت نيتشه من فرويد وماركس ، فيبدو لي الآن أنه قريب أيضاً من يونغ . فنيتشه ، شأنه شأن يونغ ، يقابل بين الأنا والهو ، بين العقل « الصغير » والعقل « الكبير » . إن نيتشه مؤول صارم قاسٍ ، ولكنه يتوفر على طريقة في الاصغاء لصوت « العقل الكبير » تقربه من يونغ .

فوكو : لا شك أنكم على صواب .

الانسة رامنو : أريد أن أعود إلى نقطة سبق أن أثيرت : لماذا لم تتحدثوا عن دور التفسير الديني ؟ فيبدو لي أننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن تاريخ الترجمات : لان كل ناقل للكتاب

المقدس يعتقد أنه ينقل المعنى الذي أودعه الله الكتاب ، وبالتالي فهو يحمله وعياً لا متناهياً . وأخيراً فإن الترجمات تتطور بتطور الازمان ، وهناك شيء ينكشف عبر هذا التطور . وهذه مسألة لا تخلو من تعقيد .

أمر آخر ، قبل أن أصغي إلى عرضكم كنت أفكر في العلاقات التي يمكن أن تربط نيتشه بفرويد . إذا ما تصفحتم أعمال فرويد وكتاب « تجونس » عن حياة فرويد ، لا تجدون شيئاً كثيراً عن تلك العلاقة ، الشيء الذي يدفعني إلى التساؤل : لماذا سكت فرويد عن نيتشه ؟

بصدد هذه النقطة هناك أمران : الامر الاول هو انه في سنة ١٩٠٨ ، على ما أظن ، اتخذ تلامذة فرويد ، وأعني رانك وادلر ، كموضوع لاحد مؤتمراتهم الصغيرة أوجُهَ الشبه والتماثل بين أطروحات نيتشه (وخصوصا تلك التي جاءت في كتاب نشأة الاخلاق) وبين أطروحات فرويد ، وقد تركهم فرويد يفعلون دون أن يتدخل ، مبدياً كل تحفظ ، وأعتقد أن كل ما صُرِّحَ به في هذا الصدد يكاد ينحصر في هذه العبارة : ان نيتشه يأتي بفائض من الافكار في الوقت ذاته . الامر الثاني هو أن فرويد قد تعرف ابتداء من سنة ١٩١٠ على « لوسالومي » ، وما من شك في أنه قام بتحليله ، ونتيجة لهذه فربما تكون هناك علاقة طيبة قد نشأت بين نيتشه وفرويد عن طريق لوسالومي .

هذا ، والحال أنه لم يكن في استطاعته أن يتحدث عن تلك العلاقة ، والمؤكد ، هو أن كل ما نشره لوسالومي ، فيما بعد ، يشكل جزءاً من تحليله اللامتناهي . وينبغي قراءة ما كتبه من هذا المنظور . وفيما بعد نجد كتاب فرويد « موسى والتوحيد » حيث يدور حوار بين فرويد وبين نيتشه كاتب نشأة الاخلاق . ها أنتم ترون أنني لا أعمل إلا على إثارة المسائل ، فهل لكم ما تساهمون به في حلها ؟

فوكو : ليس لي ما أضيفه إلى ما قلتموه . حقاً لقد أثار انتباهي صمت فرويد بشأن نيتشه ، اللهم إلّا جملة أو جملتين فحسب ، وهذا أمر غريب . أما تفسير ذلك عن طريق تحليل « لوسالومي » ، وكونه لم يستطع أن يقول شيئاً أكثر . . .

الآنسة رامنو : إنه لم يرد أن يقول شيئا أكثر .

ديمونبين : لقد قلتم بصدد نيتشه أن تجربة الحمق كانت اقرب نقطة إلى المعرفة المطلقة ، هل يمكن أن أسألكم في مدى معرفة نيتشه لتجربة الحمق ؟ لو توفر لكم الوقت لكان من المفيد طرح المسألة بصدد مفكرين عظام آخرين ، شعراء أكانوا أم كتاباً مثل هولدرلين ، ونرفال وموباسان ، بل وموسيقيين أمثال شومان ، ودوبرال ، ورافيل ، ولكن لنحصر سؤالنا حول نيتشه . أهذا ما كنتم تعنونه ؟

فوكو : نعم .

ديمونبين : ألم تكونوا تقصدون « شعوره » ، و « تخمينه » للحمق ؟ أتعتقدون حقاً أن مفكرين من مستوى نيتشه يمكن أن يعرفوا « تجربة الحمق » ؟

فوكو : أجيبكم نعم ، بكل تأكيد .

ديمونبين : لا أفهم ما تعنونه ، لأنني لست مفكراً كبيراً .

فوكو : لا أعني هذا .

كلكل : سيكون سؤالي مختصراً ، وهو يتعلق بما أطلقتم عليه « تقنيات التأويل » التي يظهر أنكم ترون فيها ، لا أقول بديلاً ، وإنما خلفاً ، واستمراراً ممكناً يخلف الفلسفة . ألا تعتقدون أن هذه التقنيات هي تقنيات « علاج » ، علاج الفرد عند فرويد ، وعلاج الانسانية عند نيتشه ؟

فوكو : أعتقد أن المعنى الذي اتخذه التأويل ، خلال القرن التاسع عشر ، قد اقترب حقاً مما تعنونه بالعلاج . لقد كان التأويل خلال القرن السادس عشر يتخذ معناه في جهة الوحي والخلاص .

أكتفي بأن أورد جملة لمؤرخ يدعى « غارسيا » ، كتب سنة ١٨٦٠ : « لقد حلت الصحة في أيامنا هذه محلّ الخلاص » .

تعريب عبد السلام بنعبد العالي